معلقة الحارث بن حلزة اليشكرى

(الحارث بن حلزة بن يشكر بن بكر)

هو شاعر قبيلة بكر وليس بالفارس المشهور مقابل شهرة شاعر تغلب عمرو بن كلثوم بالفروسية ورئاسة قومه. وتأتى منزلة الحارث القبلية بعد أن ارتجل هذه القصيدة ـ أو القاها بعد إعداد وروية فى أقوال أخرى ـ اذ ألقيت فى موقف مشهور بين بكر وتغلب فى قصر الملك عمرو بن هند حيث سبق عمرو بن كلثوم بإلقاء قصيدته (معلقته) التى وردت قبل ذلك، وفى معلقة الحارث هذه نراه شديد الفخر بقومه حتى صار مثلا يضرب فى مجال الفخر حيث يقال: أفخر من الحارث بن حلزة! ولعل هذا المثل هو الشئ الوحيد الذى بقى من سيرة الحارث فليس لدينا عنه معلومات سوى خبر برصه، وأنه خشى من إلقاء القصيدة أمام الملك بسبب هذا البرص وتوقع اشمئزاز الملك منه، لكن لشدة إعجاب الملك وأمه هند بالقصيدة تم تكريم الحارث دون النظر إلى برصه.

وقال الحارث بن حلزة اليشكرى :

(١) آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ ... رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

(٢) بَعْدَ عَهْدٍ لَنَا بِبُرْقَةِ (شَمَّا ... ءَ) فَأَدْنَى دِيَارِهَا الْخُلَصَاءُ

(٣) فَالْمُحَيَّاةُ فَالصَّفَاحُ (فَأَعْنَا ... قُ) فَتَاقٍ فَعَاذِبٌ فَالْوَفَاءُ

(٤) فَرِيَاضُ الْقَطَا فَأَوْدِيَةُ (الشُّرْ ... بُبِ) فَالشُّعْبَتَانِ فَالأَبْلاءُ

(٥) لاَ أَرَى مَنْ عَهِدْتُ فِيهَا فَأَبْكِي (الـ ... يَوْمَ) دَلْهًا وَمَا يُحِيرُ الْبُكَاءُ

(٦) وَبِعَيْنَيْكَ أَوْقَدَتْ هِنْدٌ (النَّا ... رَ) أَخِيرًا تُلْوَى بِهَا الْعَلْيَاءُ

(٧) فَتَنَوَّرْتُ نَارَهَا مِنْ بَعِيدٍ ... بِخَزَازَى هَيْهَاتَ مِنْكَ الصَّلاءُ

آذنتنا : أعلمتنا . بين : هجر وفراق .

ثاو : من : ثوى ثواء فهو ثاو ، أى أقام إقامة فهو مقيم .

أدنى ديارها : أقرب دار لها .

برقة شماء ، الخلصاء ، المحياة ، الصفاح ، أعناق فتاق ، عاذب ، الوفاء ، رياض القطا ، أودية الشريب ، الشعبتان ، فالأبلاء : كل ما سبق أسماء مواضع لكنها ذات دلالات ربما عمد إليها الشاعر . دلها : شوقا وحبا .

يحير : يرجع الشىء إلى ما كان عليه . بعينيك : أمام عينيك .

أخيرا : فى آخر عهدك بها .

تلوى : تشير ، وفاعل تلوى هو العلياء أى المكان المرتفع كأن هذا المكان بما فوقه من نار هند يشير إلى مصباح ضخم يشبه منارة الراهب عند امرىء القيس .

تنور : نظر إلى النار من بعيد .

خزازى : اسم موضع ـ يجب مراجعة الكلمة فى شرح البيت ٦٨ عند عمرو بن كلثوم لأن الحارث يُعَرِّضُ به هنا .

الصلاء : الاستيقاد من (النار) أو الاستدفاء بها أو معاناة لهبها .

لقد أعلمتنا أسماء بفراقها لنا ، لعل الفراق يشعل نار حبها فى قلبى حيث إن البقاء طويلا (بجانبى!) قد يدعو إلى الملل (منها) يبدو فى هذا البيت (١) : أن الشطرة الثانية على لسان أسماء ـ لقد أعلمتنا برحيلها ـ حتى لا أملها ـ لأنه رب ثاو يمل منه الثواء) . هذا

الرحيل بعد تعاهد على الحب فى زمن لنا ببرقة شماء حيث أقرب دار لها (بالخلصاء أو المحياة . . . الخ) .

وها أنذا لا أرى من تعودت رؤيته (يريد : الحبيبة) فأبكى الآن فى شوق . . ولكن البكاء لن يرجع شيئا! . . . ومع ذلك لازالت أمام عينى نار هند (يريد قومها) فوق العلياء كأن العلياء تشير إلىَّ بهذه النار فنظرت إليها (أبحث عن هند) لكن هيهات ! هيهات ! (ما أبعد) الاستدفاء بتلك النار حيث قرب هند . لقد أوقدت هند تلك النار بخزازى . . .

(٨) أَوْقَدَتْهَا بَيْنَ الْعَقِيقِ (فَشَخْصَيْـ ـنِ) بِعُودٍ كَمَا يَلُوحُ الضِّيَاءُ

(٩) غَيْرَ أَنِّى قَدْ أَسْتَعِينُ عَلَى (الْهَمِّـ ـمِ) إِذَا خَفَّ بِالثَّوِىِّ النَّجَاءُ

(١٠) بِزَفُوفٍ كَأَنَّهَا هِقْلَةٌ أُمْـ ـمُ) [1] رِئَالٍ دَوِيَّةٌ سَقْفَاءُ

(١١) أَنَسَتْ نَبْأَةً وَأَفْزَعَهَا (الْقُنْـ ـنَاصُ) عَصْرًا وَقَدْ دَنَا الإِمْسَاءُ

(١٢) فَتَرَى خَلْفَهَا مِنَ الرَّجْعِ (وَالْوَقْـ ـعِ) مَنِينًا كَأَنَّهُ إِهْبَاءُ

(١٣) وَطِرَاقًا مِنْ خَلْفِهِنَّ طِرَاقٌ سَاقِطَاتٌ أَلْوَتْ بِهَا الصَّحْرَاءُ

العقيق، شخصين : موضعان . العود : ضرب من الشجر طيب الرائحة إذا اشتعل .

خف : مضى فى همة ونشاط مثل قولنا : خف ـ فلان ـ فى حاجتى .

الثوى : المقيم . النجاء : السرعة يريد : السير السريع فى الرحيل .

زفوف : ناقة زفوف أى سريعة (مثل النعام خاصة) .

هقلة : نعامة . رئال : ابن النعامة .

دَوية : نسبة إلى الدو ، وهى الأرض الخلاء المتسعة الشاسعة ، يريد أنها تنطلق فى هذا الخلاء أو تعيش به منطلقة .

سقفاء : مرتفعة ، وكل ما ارتفع يعد سقفا وقد يكون السقف بمعنى الطول مع الانحناء ، والصفة منه : أسقف ـ سقفاء . أنس : أحس .

نبأة : صوت خفى يهجس للإنسان حقيقة أو خيالا . الرجع : تردد قوائمها بالحركة .

الوقع : وقع حوافرها على الأرض ، والرجع والوقع معا إيقاع صوتى لحركة الناقة (أو

---

(١) فصلنا ميمى الإدغام وتقرأ : أمْ م دفعة واحدة : أمٌ وفعلنا نفس الشىء للنّون فى البيت ١١ مع كلمة القناص . وستتبع نفس القاعدة فى كل القصيدة بسبب تدويرها .

النعامة) . منين : الغبار الضعيف . إهباء : إثارة الغبار (الهباء) .
الطراق : طرق النعل وفى الناقة تطرق نعلها بنعلها أو خفها بخفها (من فرط اضطراب الحَركة) . ألوى : يريد بها : أفنى .
. . . لقد أوقدتها (النار) بين العقيق وشخصين بالعود كما يبدو من ظهور الضوء . . .
(لكن ألم الفراق لن يقتلنى) لأننى أستعين على الهم - إذا مضى بالحبيب (الذى كان مقيما معى) الرجيل السريع - بناقة سريعة مثل نعامة لها رئال (هذا أدعى إلى حذرها وتيقظها) دوية سقفاء أحست بصوت هاجس وأخافها القناص (الصيادون) فى مساء يوم عندما اقترب الليل [1] . . وعندما حدث ذلك انطلقت فى سرعة خاطفة الرجع والوقع فلا ترى إلا غبارا خفيفا ، وطراقا بعده طراق حتى أفنت الصحراء نعالها (أو خفها) .

(١٤) أَتَلَهَّى بِهَا الْهَوَاجِرَ إِذْ (كُلْـ ... ـلُ) ابْنِ هَمٍّ بَلِيَّةٌ عَمْيَاءُ
(١٥) وَأَتَانَا مِنَ الْحَوَادِثِ (والأَنْـ ... ـبَاءِ) خَطْبٌ نُعْنَى بِهِ وَنُسَاءُ
(١٦) إِنَّ إِخْوَانَنَا الأَرَاقِمَ (يَغْلُو ... نَ) عَلَيْنَا وَقِيلُهُمْ إِحْفَاءُ
(١٧) يَخْلِطُونَ الْبَرِيءَ مِنَّا بِذِي (الذَّنْـ ... ـبِ) وَلا يَنْفَعُ الْخَلِيَّ الْخَلاءُ
(١٨) زَعَمُوا أَنَّ كُلَّ مَنْ ضَرَبَ (الْعِيْـ ... ـرَ) مُوَالٍ لَنَا وَأَنَّا الْوَلاَءُ
(١٩) أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ بِلَيْلٍ فَلَمَّا ... أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ

أتلهى : ألهو بها وأتسلى .
الهواجر : وقت الهواجر ، والهواجر جمع هاجرة وهى انتصاف النهار حيث يشتد الحر .
ابن هم : رجل أحاط به الهم إحاطة الأم بوليدها أو الأب بابنه . البلية العمياء : الناقة يموت صاحبها فتغطى عيناها وتربط على قبره حتى تموت . نعنى : نمتلىء بالعناء والتعب .
الأراقم : بطن من بنى تغلب شبهت امرأة عين أبيهم بعين الأرقم فأطلق عليهم الأراقم .
يغلون : يرتفعون علينا بالمبالغة والتعصب والظلم . قيلهم : قولهم .
إحفاء : فوق الاحتمال .

---

(١) راجع بقرة لبيد المسبوعة !

الخلى : الخالى من الهموم (ويريد هنا الخالى من الذنوب)
الخلاء : الخلو (من الذنوب) والخلاء الفضاء .
العير : الحمار الوحشى ، وكل شيء بارز مثل وتد الخيمة ، والعين ، وسيد القوم حيث يعد عير القوم سيدهم كما أن الحمار الوحشى هو سيد الصيد . وقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى أبى سفيان : (كل الصيد فى جوف الفرا) يريد فى جوف العير .
أنا الولاء : أنا ولاتهم أى المسئولون عنهم .
أجمعوا أمرهم : وطنوا أنفسهم (على شيء) .
. . . أتلهى بتلك الناقة وقت الشدة والهم حيث يهلك كل صاحب هم هلاك البلية العمياء . . . (وأى هم أكثر من الهم الذى) أتتنا به أحداث الزمان وأنباء الدنيا . . . نبأ ذلك الخطب الذى يصيبنا بالعناء والسوء : . . . إن أولاد عمومتنا من الأراقم يبالغون فى قولهم عنا أقوالا تسيء لأنها فوق الاحتمال . . . إنهم يأخذون البريء منا بالمذنب ولا ينفع البريء (الخلى) براءته (الخلاء) حتى أنهم يزعمون أن كل من ضرب عيرا (أى اقترف ذنبا أى ذنب كخلع وتد خيمة أو ضرب حمار أو إطباق عين) تابع لنا وأننا مسئولون عن ذنبه . . . من ثم اجمعوا أمرهم (على شر بليل) فلما خرج عليهم الصباح سمعنا لهم ضوضاء وضجيجا . . . .

(٢٠) مِنْ مُنَادٍ وَمِنْ مُجِيبٍ وَمِنْ (تَصْـ ـهَالِ) خَيْلٍ خِلالَ ذَاكَ رُغَاءُ
(٢١) أَيُّهَا النَّاطِقُ الْمُرَقِّشُ عَنَّا عَنْدَ عَمْرٍو وَهَلْ لَذَاكَ بَقَاءُ
(٢٢) لا تَخَلْنَا عَلَى غَرَاتِكَ إِنَّا قَبْلُ مَا قَدْ وَشَى بِنَا الأَعْدَاءُ
(٢٣) فَبَقِينَا عَلَى الشَّنَاءَةِ (تَنْمِيـ ـنَا) حُصُونٌ وَعِزَّةٌ قَعْسَاءُ
(٢٤) قَبْلَ مَا الْيَوْمِ بُيِّضَتْ بِعُيُونِ (النَّـ ـنَاسِ) فِيهَا تَغَيُّظٌ وَإِبَاءُ
(٢٥) فَكَأَنَّ الْمَنُونَ تَرْدِى بِنَا (أَرْـ ـعَنَ) جَوْنًا يَنْجَابُ عَنْهُ الْعَمَاءُ

التصهال : صوت الخيل . الرغاء : صوت الإبل .
المرقش : المزين (يريد : من يزين القول بالباطل) . لا تخلنا : لا تحسبنا .
غراتك : إغرائك الملك بنا (تحريضه علينا) .
إنا قبل ما قد وشى بنا الأعداء : أننا كثيرا ما وشى بنا الأعداء من قبلك .

على الشناءة : على (الرغم) من بغض الناس لنا . تنمينا : ترفع من شأننا .
قعساء : ثابتة لا تزول . قبل ما اليوم : قبل اليوم .
بيضت بعيون : أصلها بيضت عيون (الناس) أى أعمتها وفاعل بيضت هى العزة أى أن عزتنا (بما لها من تغيظ وإباء) أعمت عيون حاسديها وشانئيها .
المنون : الدهر أو الموت . تردى : ترمى .
أرعن : جبلا أرعن أي له نتوءات بارزة منه .
الجون : من الأضداد : الأبيض والأسود ، ويريد هنا منه الأسود .
ينجاب : ينشق . العماء : السحاب الأبيض .

. . . وكانت تلك الضوضاء عبارة عن أشخاص يتنادون ويجيب بعضهم بعضا مع صهيل خيل وأثناء ذلك كله رغاء أبل . . . لقد كان جيشا قرر قتالنا . . . (وفوق ذلك فقد وشوا بنا إليك أيها الملك لذا أقول لمن وشى . . .) أيها الناطق بالوشاية تزين كلامك ضدنا إلى الملك عمرو بن هند . . . لن يكون لكذبك بقاء ، فلا تظن أننا نسكت على إغرائك الملك بنا فكثيرا ما حدث لنا ذلك وبقينا رغم الشائنين ووشاياتهم تسمو بنا حصون منيعة وعزة خالدة وقد أعمت ـ قبل اليوم ـ عزتنا بما فيها من جبروت عيون كارهينا . . . فكأنما نحن عدة الدهر وسلاحه يرمى بنا جبلا صعبا ذا نتوءات تشق قمته السحاب الأبيض (أعلى أنواع السحاب) .

(٢٦) مُكْفَهِراً عَلَى الحَوَادِثِ (لا تَرْ ... تـوهُ) فِي الدَّهْرِ مُؤْيِدٌ صَمَّـاءُ
(٢٧) إرَمِيٌّ بِمِثْلِهِ جَالَتِ (الخَيْـ ... ـلُ) وَتَأبَى لِخِصْمِهَا الإِجْلاءُ
(٢٨) مَلِكٌ مُقْسِطٌ وَأَفْضَلُ مَنْ (يَمْـ ... ـشِي) وَمِنْ دُونِ مَا لَدَيْهِ الثَّنَاءُ
(٢٩) أَيُّمَا خُطَّةٍ أَرَدْتُمْ (فَأَدُّو ... هَا) إِلَيْنَا تَشْفَى بِهَا الأَمْلاءُ
(٣٠) إِنْ نَبَشْتُمْ مَا بَيْنَ مِلْحَةَ (فَالصَّا ... قِبِ) فِيهِ الأَمْوَاتُ وَالأَحْيَاءُ

مكفهرا : غليظ متراكب بعضه على بعض ، وتوصف بها السماء عندما يغطيها السحاب الأسود ، وتستعار لشدة العبوس وتقطب الوجه .
ترتو : من الأضداد : تشد وترخى .
مؤيد : من الأيد (القوة) وهى هنا صفة استغنى بها عن موصوفها وهو : داهية أو مصيبة .

صماء : صلبة وتستعار لمن لا يسمع .
إرمى : نسبة إلى إرم بن سام ، وهى إرم عاد (ذات العماد) .
جالت الخيل : جالى - يجالى - إجلاء ، تعنى كاشف يكاشف مكاشفة ، يريد بالمكاشفة الظهور بمعنى الغلبة والانتصار . وقد تكون هنا جال (يجول) بمعنى انتصرت وتبقى إجلاء بمعنى الظهور أى الانتصار أيضا . مقسط : عادل .
خطة : خلاف وشجار .
تشفى بها : أى تعانى حلها حتى تخلص منها وتشفى من عنائها .
الأملاء : جمع ملاء ، وهو الحكيم الشريف .
نبشتم : بحثتم (بالحفر والنبش) . ملحة : الصاقب ، موضعان .
الأموات والأحياء : أراد بهما جميعا قتلاهم ، فمن تم الثأر له فهو حى ، ومن لم يتم الثأر له فلا زال ميتا .
. . . هذا الجبل عابس لا تنقصه الحوادث ولا تنال منه الدواهى الشديدة الصماء . . .
(ثم يعود إلى ما بدأ به فى أول هذا السياق ، أعنى : مدح الملك عمرو . . . فيقول) : إنه إرمى شرف نسب وقدم أصل وجسامة قوة ، بمثله - إن وجد - تنتصر الخيل دائما كأنها تأبى لعدوها الانتصار . . . وهو ملك عادل يعد أفضل من مشى على الأرض وكل ثناء ومديح أقل من صفاته . . . (فبدلا من الوشاية بنا عنده) فاعرضوا علينا أى خلاف فسيتحمل مسئوليته أشرافنا وحكماؤنا حتى يخلصوا منه ويشفوا (وكفاكم ما كان) فلو بحثتم فيما بين ملحة والصاقب وجدتم موتانا بين من أخذ ثأره ومن لا زال ينتظر!

(٣١) أَوْ نَقَشْتُمْ فَالنَّقْشُ يَجْشُمُهُ (النَّا ... سُ) وَفِيهِ الإِسْقَامُ والإِبْرَاءُ
(٣٢) أَوْ سَكَتُّمْ عَنَّا فَكُنَّا كَمَنْ (أَغْ ... مَضَ) عَيْنًا فِى جَفْنِهَا الأَقْذَاءُ
(٣٣) أَوْ مَنَعْتُمْ ما تُسْأَلُونَ فَمَنْ (حُدْ ... دِثْتُمُوهُ) لَهُ عَلَيْنَا العَلاءُ
(٣٤) هِلْ عَلِمْتُمْ أَيَّامَ يَنْتَهِبُ (النَّا ... سُ) غَوَارًا لكلِّ حَيٍّ عُوَاءُ
(٣٥) إِذْ رَفَعْنَا الجِمَالَ مِنْ سَعَفِ (البَحْ ... رَيْنِ) سَيْرًا حَتَّى نَهَانَا الحِسَاءُ
(٣٦) ثُمَّ مِلْنَا عَلَى تَمِيمٍ (فَأَحْرَمْـ ... ـنا) وَفِينَا بَنَاتُ قَوْمٍ إِمَاءُ

نقش بمعنى ناقش أى استقصى وجادل . يجشم : يتحمل مع عناء .
الأقذاء : جمع قذى ، هو كل ما يسقط فى العين من تراب وغيره .
حدثتموه : حدثتم عنه . العلاء : التفوق .
غوارا : إغارة بعضهم على بعض .
العواء : هو صوت الذئب ويستعار لأصوات الحيوانات المتألمة .
رفعنا الجمال : أى رفعنا من سرعتها .
سعف البحرين والحساء : موضعان ـ لكن الحساء يشير إلى الموضع النَّدِى!
فأحرمنا : دخلنا فى الشهور الحرم . إماء : أسيرات .
. . . (فلو نبشتم . . . .) أو ناقشتم لكانت المناقشة مرة لكنها لابد أن تظهر السقيم (المذنب) من البرىء . أو سكتم لكان السكوت إغماضا للعين على ما بها من قذى دون إخراجه (أى أن السكوت يبقى الأحقاد دون تصفية) ، أو منعتم ما نسألكم من إنصاف ومصارحة لكان خطأ لأنكم لا تعلمون من هو أعظم منا . . . فقد علمتم أيام قام الناس ينتهبون فى غارات حتى تصرخ كل الأحياء ، إننا الأقوياء المقاتلون ومن أسرع بالجمال خلف العدو حتى مَنَعَنَا عنه الطينُ ، فذهبنا نحو تميم فى الأشهر الحرم ومعنا من النساء الأسيرات الكثير!

(٣٧) لا يُقِيمُ الْعَزِيزُ بِالْبَلَدِ السهـ ـلِ) ولا يَنْفَعُ الذَّلِيلَ النَّجَاءُ
(٣٨) لَيْسَ يُنْجِى الَّذِى يُوَائِلُ مِنَّا رَأْسُ طَوْدٍ وَحَرَّةٌ رَجْلاءُ
(٣٩) مَلِكٌ أَضْرَعَ الْبَرِيَّةَ (لا يُو جَدُ) فِيهَا لِمَا لَدَيْهِ كَفَاءُ
(٤٠) كَتَكَالِيفِ قَوْمِنا إِذْ غَزَا (الْمُنْـ ذِرُ) هَلْ نَحْنُ لابْنِ هِنْدٍ رِعَاءُ
(٤١) مَا أَصَابُوا مِنْ تَغْلِبِىٍّ (فَمَطْلُو لٌ) عَلَيْهِ إِذَا أُصِيبَ الْعَفَاءُ
(٤٢) إِذْ أَحَلَّ الْعَلْيَاءَ قُبَّةَ (مَيْسُو نَ) فَأَدْنَى دِيَارِهَا الْعَوْصَاءُ
(٤٣) فَتَأَوَّتْ لَهُ قَرَاضِبَةٌ مِنْ كُلِّ حَىٍّ كَأَنَّهُمْ أَلْقَاءُ

النجاء : إسراع الرحيل .
يوائل : يهرب ، وتروى الشطرة الأولى : ليس ينجى موائلا من حذار والموائل : الهارب .

طود : جبل . حرة : الصحراء ذات الصخور السوداء .
رجلاء : غليظة صلبة .
أضرع : أخضع وأذل ، وتروى الشطرة : ملك أضلع البرية مايو . . جد . . وأضلع : أشد .
كفاء : عديل أو نظير .
تكاليف : المشاق والشدائد والواجبات ، وهى جمع تكليف أو تكلفة .
رعاء : رعية . مطلول عليه : أى : لا يتم البحث عن قاتله للثأر ولا يطالب بدمه .
انعفاء : الدروس ، أى ينسى فيصير بمنزلة الشيء الدارس .
أحل : أسكن سكنا مؤقتا ، والفعل هنا ينصب مفعولين (العلياء - ميسون) .
ميسون : عمرو بن هند (ابن الملك المنذر) أرسل أخاه النعمان بن المنذر لحرب بنى غسان بعد مقتل المنذر أبيهما . وبالفعل انتصر النعمان فى موقعة بالشام حيث قتل أحد ملوك بنى غسان وأسر ابنته المسماة ميسون ، واستنقذ من الأسر أخًا له يسمى "امرؤ القيس بن المنذر" . وقد وضعت الفتاة ميسون بقُبَّة لها (أى خباء خاص بها) فى أرض العلياء حتى أصبحت أقرب دار لها فى مكان يسمى العوصاء .
العلياء : والعوصاء : موضعان .
تأوت : لجأت واتخذت منه مأوى فى جماعات اجتمع بعضها إلى بعض .
قراضبة : صعاليك .
ألقاء : جمع لقى : وهو الشيء المهمل الذى لا فائدة منه ، وقد يكون جمع لقوة : وهو العقاب (من جوارح الطيور) . ولعل الشاعر يشير للأمرين لأنهما ينطبقان على الصعاليك .

. . . ونحن فى حركتنا من غزو لا نقيم فى أرض سهل - بل نلجأ للجبال نعتصم فيها ، وهذا شأن كل عزيز أما الذليل فلا أمل له فى نجاة حتى لو أسرع فى الفرار عند الخطر
. . . . فقد علمنا أن من يفر منا لن ينقذه اللجوء إلى قمة الجبل أو إلى الصخور السوداء التى يختبئ بينها وفى سوادها الهاربون (ولهذا فذهابنا إلى الجبال وقت الغارة ليس فرارا بل عزة وتحصنا) .
. . . . فنحن أولياء (عمرو بن هند) الملك الذى قهر العالم ولا يوجد فى العالم لقوته نظير إلا قوة قومنا التى ظهرت فى غزوات آل المنذر ، وذلك ليس بغريب : ألسنا من رعايا الملك عمرو بن هند ؟! خلال هذه الغزوات كل تغلبى قتل لم يؤخذ بثأره ولم يطالب بدمه فإذا أصيب التغلبى فى القتال فعليه العفاء (أى فله الفناء لأن الاعتقاد الشائع

أن الثأر حياة للقتيل وخلود ، وأن التخلى عن الثأر فناء أبدى للقتيل) . . . . وخلال هذه الغزوات كان دليل النصر قبة ميسون الأسيرة أحلها الملك بالعلياء وبالعوصاء . . . ولانتصاراته العظيمة لجتمعت حوله الصعاليك بشجاعتهم وانقضاضم على الأعداء . . . وفى تجمعهم حوله رغم شجاعتهم ظهروا كأنهم شىء مهمل يستهان به (أو ظهروا مثل العقبان) .

(٤٤) فَهَدَاهُمْ بِالأَسْوَدَيْنِ وَأَمْرُ (اللـ ـهِ) بِلْغٌ تَشْقَى بِهِ الأَشْقَيَاءُ

(٤٥) إِذْ تَمَنَّوْنَهُمْ غُرُوراً (فَسَاقَتْ ـهُمْ) إِلَيْكُمْ أُمْنِيَّةٌ أَشْرَاءُ

(٤٦) لا يَغُرُّوكُمُ غُرُوراً ولكِنْ رَفَعَ الآلُ شَخْصَهُمْ والضُّحَاءُ

(٤٧) أَيُّهَا النَّاطِقُ الْمُبَلِّغُ عَنَّا عِنْدَ عَمْرٍو وَهَلْ أَتَاكَ انْتِهَاءُ

(٤٨) مَنْ لَنَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَيْرِ (آيا تٌ) ثَلاثٌ فِى كُلِّهِنَّ الْقَضَاءُ

(٤٩) آيَةَ شَارِقُ الشَّقِيقَةِ إِذَا (جَا ءَتْ) مَعَدٌّ لِكُلِّ حَيٍّ لِوَاءُ

(٥٠) حَوْلَ قَيْسٍ مُسْتَلْئِمِينَ بِكَبْشٍ قَرَظِيٍّ كَأَنَّهُ عَبْلاءُ

الأسودين : التمر والماء ، وقد غلب لون التمر الأسود على شفافية الماء عند التسمية كعادة العرب (أمثلة ذلك القمران : العمران الدحرضان - راجع شرح البيت رقم ٢٨ من معلقة عنترة) .

أمر الله بالغ : أى محقق يبلغ ما يريد ، وأمر الله هنا هو عمرو ابن هند وجيشه .

تمنونهم : أرادوا قتالهم راجين هزيمتهم وأخذ أموالهم كغنائم . أى جعلوا قتالهم أمنية .

غرورا : خداعا .

أمنية : رجاء . أشراء : من الأشر : البطر والمبالغة فى الفرح (بالنفس) .

لم يغروكم : يخدعوكم أو يفاجئوكم .

الآل : السراب . الضحاء : الضحى ، وهو وقت ارتفاع النهار .

انتهاء : يريد بها النهى أى الانتهاء عن الشر .

آيات : علامات (على الولاء وحسن البلاء) .

فى كلهن القضاء : أى يقضى الناس بصحتهن جميعا .

شارق الشقيقة : الشارق من يأتى من المشرق ، والشقيقة الأرض الصلبة بين رملتين ، والواضح أنه يشير إلى موضع موقعة عسكرية أو إلى اسم هذه الموقعة أى أن "شارق الشقيقة" علم على مكان أو حرب ، ويروى أن قوما يطلق عليهم بنو الشقيقة (من بنى شيبان) أغاروا على إبل لعمرو بن هند ، وكان على رأسهم قيس بن معد يكرب (أبو الأشعث بن قيس) فصدهم قوم الحارث بن حلزة (بنو يشكر) .

كبش : تستعار للسيد من القوم .

قرظى : نسبة إلى البلاد التى ينمو بها القرظ المستعمل فى الدبغ وعمل الدروع ، ويريد بالكبش القرظى : قيسا الذى أشار إليه .

عبلاء : صخرة بيضاء .

. . . (وعندما تجمعت حوله الرجال والصعاليك) قادهم (هداهم) وذادهم التمر والماء يسيرون فى قوة كأنهم أمر الله النافذ . . . . ومع ذلك طمعتم فيهم (وهم رجال عمرو) خداعا لأنفسكم فساقتهم إلى (قتالكم) أمنيتكم الفرحة بما أُوتيتُمْ من قوة . فجاءوكم دون مفاجأة لأنكم تمنيتموهم من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأنهم جاءوا إليكم فى وضح النهار يقذفهم نحوكم السراب وشمس النهار أثناء ارتفاعها . . . . .

فمرة أخرى أحذركم من نطقكم بالوشاية ضدنا عند عمرو . وأقول لكم : هل أنتم منتهون؟! إن هذا الملك الذى تصله وشاياتكم لنا عنده ثلاث آيات شهد بها الناس جميعا وقضوا قضاء .

الآية الأولى : يوم شارق الشقيقة إذ جاءت معد بجمعها وكل حى منها يرفع علمه ، وذلك حول قيس متخذين من قيس (هذا الكبش القرظى) درعا يستلئمون به ، وهو فى وسطهم مثل الصخرة البيضاء التى لا تقهر . . . .

(٥١) وَصَتِيت مِنَ الْعَوَاتِكِ (لاَ تَنْـ ... ـهاهُ) إلاَّ مُبْيَضَّةٌ رَعْلاَءُ

(٥٢) فَرَدَدْنَاهُمُ بِطَعْنٍ كَمَا (يَخْـ ... ـرُجُ) مِنْ خُرْبَةِ الْمَزَادِ الْمَاءُ

(٥٣) وَحَمَلْنَاهُمُ عَلَى حَزْمِ (ثَهْلا ... نَ) شِلالاً وَدُمَّى الأَنْسَاءُ

(٥٤) وَجَبَهْنَاهُمُ بِطَعْنٍ كَمَا (تُنْـ ... ـهَزُ) فِى جَمَّةِ الطَّوَى الدَّلاَءُ

(٥٥) وَفَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلِمَ (اللَّـ ... ـهُ) وَمَا إنْ لِلْحَائِنِينَ دِمَاءُ

(٥٦) ثُمَّ حُـــجْـــرًا، أَعْـنِى ابْنَ أُمِّ قَـطَامٍ وَلَهُ فَـــارِسِـــيَّـــةٌ خَـــضْـــرَاءُ

(٥٧) أَسَـــدٌ فِى الـلَّقَـــاءِ وَرْدٌ هَمُـــوسٌ وَرَبِيـعٌ إِنْ شَـــمَّـــرَتْ غَـــبْـــرَاءُ

صتيت : الجماعة .

العواتك : نساء حرائر شريفات النسب ويريد بقوله : صتيت من العواتك : جماعة من أبناء العواتك . وحرف الجر : (من) هنا يشير للانتماء والمصدر الذى أتت منه الجماعة (الصتيت) .

مبيضة : صفة استغنى بها عن موصوفها وهو الكتيبة ويريد كتيبة مبيضة بيضها شرف النسب والدروع والسيوف والخيل البيضاء .

رعلاء : أى : ذات ضربات (بالسيوف) رعلاء ، والضربة الرعلاء هى التى تزيل اللحم عن العظم واستخدم صفة الضربة ووصف بها الكتيبة .

خربة المزاد : ثقب المزاد (ثقب فى زق الماء) .

الحزم : ما غلظ ووعر من الأرض . ثهلان : جبل معروف .

شلالا : هاربين . دمى : جمع دام .

الأنساء : جمع نسا (وقد تكتب : نسى) وهو عرق فى بطن الفخذ (عرق النسا) .

والأنساء : فاعل مرفوع باسم الفاعل (دمى) .

ويصبح المعنى : تدمى أنساؤهم .

جبهناهم : من الجَبْهِ . وهو الردع والقمع فى أشد حالاتهما والفعل : جَبَهَ يَجْبُهُ .

تُنْهز : تُحَرَّك . جمة : الماء الكثير .

الطوى : البئر . الدلاء : جمع دلو .

الحائنين : من حانت منيته فهلك .

حجر بن أم قطام : اسم رجل غزا امرأ القيس جد عمرو بن هند . وحجر هذا ملك كندة . وقد حاربت قبيلة بكر التى ينتمى إليها الحارث (شاعرنا) فى صف امرىء القيس وهزمت حجرا .

فارسة خضراء : كتيبة فارسية السلاح ، وأن هذا السلاح أخضر أى علق به الصدأ .

ورد : يميل إلى اللون الأحمر ، وذلك من صفات الأسد .

هموس : أى صاحب همس ، والهمس هنا وقع أقدام المقاتل فى خفاء لا تكاد تبين .

ربيع : كريم يفعل فعل الربيع .

شمرت : جدت ونشطت . غبراء : سنة غبراء أى جافة .

. . . (لقد أقبلوا يستلئمون بقيس . . .) وبجماعة من الفرسان النبلاء الذين لا يوقفهم إلا من يجيد خلع اللحم عن العظم من الكتائب البيضاء . . . . فرددناهم (على أعقابهم) بطعن رماحنا ففروا مثل زق يسيل منه الماء عندما سالت دماؤهم بطعننا وأرغمناهم على اللجوء إلى أرض ثهلان الوعرة يفرون بها والدماء تنبثق من أنسائهم . . . نعم لقد ردعناهم بطعنٍ انْهالَ فى جمعهم مثل حركة الدلاء فى ماء بئر جمة الماء . . . . . وصنعنا بهم ما لا يحكَى ولا يحيط به إلا الله كأنهم هالكون حانت منيتهم على يدنا لاثأر لهم ولا دماء يطالب بها حتى نرحمهم .

. . . كانت تلك هى الآية الأولى . . . (أما الآية الثانية فكانت يوم رددنا . . .) حجرا برجاله الذين يحملون السلاح الفارسى الصدئ . . . وقد رددناه رغم أنه أسد فى القتال له هيبة وبطل فارس كرمه يغمر الناس فى سنوات القحط والجفاف . . . .

(٥٨) وفككنا غُلَّ امْرِئِ القَيْسِ عَنْهُ بَعْدَمَا طال حَبْسُهُ والعَنَاءُ

(٥٩) ومع الجَوْنِ، جَوْنِ بنى (الأَوْ سِ) عَنُودٌ كَأَنَّهَا دَفْواءُ

(٦٠) ما جَزِعْنَا تحت العُجاجة إذ (وَلَّـ ـوا) شِلالاً وإذ تَلَظَّى الصِّلاءُ

(٦١) وأَقَدْناهُ رَبَّ غَسَّانَ (بالمُنْـ ـذِرِ) كَرْهًا إذْ لا تُكَالُ الدِّمَاءُ

(٦٢) وأتيناهم بِتِسْعَةٍ (أَمْلاَ كٍ) كِرامٍ أَسْلابُهُم أَغْلاءُ

(٦٣) وَوَلَدْنَا عَمْرَو بن أمِّ أناسٍ من قَرِيبٍ لما أَتَانا الحِبَاءُ

(٦٤) مِثْلُهَا تُخْرِجُ النَّصِيحةَ (للقو مِ) فَلاةٌ من دونها أَفْلاءُ

بنو الأوس : قوم من كندة ، والجوْن اسم ملك بنى الأوس .

عنود : كثيرة العناد . وهى صفة لموصوف محذوف هو : الكتيبة .

دفواء : المنحنية (انعطافا على ملكها ودفاعا عنه) . ويشبه الكتيبة هنا بقرن الوعل وهو ينحنى ممتدا فوق ظهره حتى ذنبه فكأن الكتيبة فى امتدادها وانحنائها على صاحبها قرن وعل . وقيل إن الدفواء : هو العُقَاب . جزع : انثنى حزنا وهلعا .

العجاجة : غبار المعركة . شلالا : هاربين .

تلظى : اشتعل والتهب . الصلاء : النار .
أقدناه : أعطيناهُ (عمرا بن هند) كى يثأر منه أى أعطينا رب غسان (ملكهم) لعمرو ابن هند ليقتله مقابل دم أبيه المنذر . لا تكال الدماء : أى لا يمكن كيلها لكثرتها .
أتيناهم : أى أتينا لهم بأسرى تعدادهم تسعة ملوك ، ومن جموع ملك أملاك .
أسلابهم : ما سلب منهم من غنائم . أغلاء : جمع غال .
وولدنا : أى صار لقبيلتنا بمنزلة الولد لأن أمه منا . ويقصد بذلك أم عمرو بن هند التى هى حفيدة أم أناس هذا (من بكر) .
من قريب : أى «وولدنا عمرو . . .» من قريب : بسبب صلة النسب إلينا .
الحباء : طلب خطبة جدة هند أم عمرو بن هند .
مثلها : مثل هذا النسب يجعلنا ناصحين للقوم وعلى رأسهم الملك بحكم القرابة التى تربطنا به كما ترتبط الفلاة بالفلوات أو الأفلاء . والفلاة : الصحراء الشاسعة .
. . . (وخلال تلك المعارك) فككنا قيود أميرنا امرئ القيس بعد الحبس الطويل والمعاناة . . . (وتم هذا مع قوة العدو) إذ كان ملك بنى الأوس قد جاء بكتيبة شديدة العناد تلتف حوله فى انعطاف عليه كأنها قرن وعل (أو عقاب) . . . . وفى أوج المعركة وارتفاع غبار العجاجة لم نجزع عندما ولى الآخرون فرارا لرؤيتهم اشتعال نار القتال . . . بل أسرنا ملكا من بنى غسان وسلمناه لعمرو بن هند يقتله مقابل دم أبيه المنذر ، وكان أسرنا له عنوة وكرها فى بحر دماء القتال التى لا يمكن كيلها لكثرتها ، ومع ذلك الملك أسرنا تسعة ملوك آخرين ومعهم أسلاب غالية كسبناها . . . كانت هذه هى الآية الثانية (أما الآية الثالثة فهى أنا . . .) ولدنا الملك عمرو إذ تنتسب أمه إلينا وبمثل هذا النسب يحق لنا النصح للناس بقدر قرابتنا إليه التى فى تشابكها مثل الصحراء الشاسعة تتصل بالصحارى المترامية . . .

(٦٥) فَاتْرُكوا الطَّيْخَ وَالتَّعاشِى وَإِمَّا ... تَتَعاشَوْا فَفِى التَّعَاشِى الدَّاءُ
(٦٦) أُذْكُرُوا حِلْفَ ذِى الْمَجَازِ وَمَا (قُدْ ... دِمَ) فِيهِ الْعُهُودُ والْكُفَلاَءُ
(٦٧) حَذَرَ الْجَوْرِ وَالتَّعَدِّى وَهَلْ (يَنْـ ... قُضُ) مَا فِى الْمَهَارِقِ الأَهْوَاءُ
(٦٨) وَاعْلَمُوا أَنَّنَا وَإِيَّاكُمُ (فِيـ ... ـما) اشْتَرَطْنَا يَوْمَ اخْتَلَفْنَا سَوَاءُ

(٦٩) عَنَنًا بَاطِلاً وَظُلْمًا كَمَا (تُعْـ تَرُ) عَنْ حُجْرَةِ الرَّبِيضِ الظِّبَاءُ

(٧٠) أَعَلَيْنَا جُنَاحُ كِنْدَةَ أَنْ (يَغْـ نِمَ) غَازِيهُمُ وَمِنَّا الْجَزَاءُ

الطيخ : الكبر . التعاشى : التعامى .

حلف ذى المجاز : ذو المجاز مكان جمع فيه عمرو بن هند بكرًا وتغلب وعمل حلفا بينهما وأخذ منهما رهائن وكفلاء .

المهارق : الصحف ، وهى كلمة فارسية الأصل .

عننا : من : عنَّ - يعن - عننا ، والعنن الاعتراض : أى كل ما تتهمموننا به ليس إلا اعتراضات باطلة .

تعتر : من العتيرة ، وهى ذبيحة رجب التى تقدم للأصنام . وأصلها أن ينذر الرجل أن يذبح من كل عشر شاة واحدة يقدمها للصنم إذا بلغت غنائمة مائة شاة . وعندما تبلغ غنائمة المائة يبخل ويذهب لصيد ظباء ، يذبحها فى رجب بَدَلاً من الغنم .

الحجرة : الناحية ، ويريد بها موضع الغنم .

الربيض : جماعة الغنم . جناح : هنا بمعنى : ذنب .

الجزاء : التعويض .

. . . (والنصيحة التى أوجهها إليكم هى . .) أن تتركوا التكبر والتعامى عن الحقائق ، وداؤكم الحقيقى فى هذا التعامى . . . وأن تتذكروا حلف ذى المجاز وما فيه من عهود ورهائن وكفلاء . . . كل هذا خوف الظلم والتعدى ، وأن ينفض الهوى ما كتب فى الصحف من اتفاقات وشروط . . . ولتعلموا أننا وأنتم متساوون فى الشروط وحتى فى الخلافات . . . فما تدعونه ضدنا ليس إلا اعتراضا باطلا يشبه الفعل الباطل الذى يقوم به من يذبح الظباء بخلا بالغنم وعدم وفاء بما نذر . . . فكل اعتراض لكم لا معنى له إلا عدم الوفاء بالعهود . . . .

فهل نحمل نحن ذنب كندة يوم أن غزتكم وأسرت وغنمت منكم وبالتالى فمسئوليتنا تعويضكم (عن عار لحق بكم بهزيمتكم) . . . . ؟!

(٧١) أَمْ عَلَيْنَا جَرَّا إِيَادٍ كَمَا (نِيـ طَ) بِجَوْزِ الْمُحَلَّلِ الأَعْبَاءُ

(٧٢) لَيْسَ مِنَّا الْمُضَرَّبُونَ وَلا (قَيْـ سٌ) وَلاَ جُنْدُلٌ وَلاَ الْحَذَّاءُ

(٧٣) أَمْ جَنَايَا بَنِى عَتِيقٍ فَإِنَّا ... مِنْكُمُ إِنْ غَدَرْتُمُ الْبُرَآءُ

(٧٤) وَثَمَانُونَ مِنْ تَمِيمٍ (بِأَيْدِيـ ... هِمْ) رِمَاحٌ صُدُورُهُنَّ الْقَضَاءُ

(٧٥) تَرَكُوهُمْ مُلَحَّبِينَ وَآبُوا ... بِنِهَابٍ يَصُمُّ مِنْهَا الْحُدَاءُ

(٧٦) أَمْ عَلَيْنَا جَرًّا حَنِيفَةَ أَو مَا ... جَمَّعَتْ مِنْ مُحَارِبٍ غَبْرَاءُ

(٧٧) أَمْ عَلَيْنَا جَرًّا قُضَاعَةَ أَمْ (لَيْـ ... سَ) عَلَيْنَا فِيمَا جَنَوْا أَنْدَاءُ

(٧٨) ثُمَّ جَاءُوا يَسْتَرْجِعُونَ فَلَمْ (تَرْ ... جِعْ) لَهُمْ شَامَةٌ وَلا زَهْرَاءُ

جَرًّا : جراء أى جريرة وجناية .

إياد : يحكى عن إياد بن نزار أنه دخل فى حروب مع كسرى بدأت بامتناعه عن دفع الإتاوة التى يدفعها ملوك الحيرة لكسرى ثم سطا على امرأة كسرى وغنم أموالا كثيرة وانتهى به الأمر أن وجه إليه كسرى جيشا ضخما فكسر شوكته .

نيطَ : خُصَّ .

جوز : وسط (المحمل أى الناقة المحملة) .

الأعباء : جمع عبء .

المضربون - قيس - جندل - الحداء : أقوام من تغلب أذلوا وضربوا بالسيف . والشاعر فى هذا البيت يعاير بنى تغلب بهم .

جنايا : ذنوب .

بنى عتيق : قوم غزوا تغلب (ومن سياق البيت أن سبب حربهم لتغلب هو غدرها بهم) .

ثمانون من بنى تميم : يروى أن عمرا من ولد سعد بن زيد مناة ابن تميم خرج فى ثمانين من قومه فقابل قوما من تغلب فى (نطاع) يقال لهم بنى رزاح : فقتلهم .

صدورهن : صدور الرماح أى السنان .

القضاء : الموت .

ملحبين : مقطعين الأعضاء (بالسيوف) .

آبوا : عادوا .

نهاب : غنائم منهوبة .

يصم : يسبب الصمم .

الحداء : الغناء خلف الإبل .

غبراء : السنة الغبراء : المجدبة ، وقد يريد بالغبراء هنا الفقراء من الصعاليك .

أنداء : رشاش : أى لم يتطاير رشاش جناياتهم علينا ، أى لم نشترك فى جنايتهم ولو رشاشا .

يسترجعون : يستعيدون (ما سلب منهم من غنائم) .
شامة ولا زهراء : أى لم يرجع لهم شيء وكنى عن ذلك بقوله : لم ترجع لهم شاة لها شامة ولا شاة بيضاء .

. . . . (هل نحمل ذنب كندة) أم نتحمل ذنب إياد إذ قتله كسرى . . . أليس تحميلنا ذنبه مثل حمل كل شيء فوق وسط البعير (كأنه مبالغة فى السخرية يقول لهم الناس : لا يعرفون مكانا من الناقة يضعون عليه أحمالهم غير وسطها - يريد ظهرها - وأنتم لا تعرفون أحدا تحملونه جنايات الناس كلها إلا بنى بكر!) . . . عموما لسنا من ضرب (المضربين ولا قيس ولا جندل ولا الحداء) بالسيف . ولسنا من يحمل ذنب غزو بنى عتيق لكم . . . بل لعلكم أنتم من يحمل ذنب عَدوكم ونحن من الغدر براء (نتبرأ) . . . كذلك ما فعله الثمانون من تميم بكم إذ حملت لكم سنانُ رماحهم الموتَ وتركوكم إربا إربا وعادوا بغنائم كثر مما رفع عقيرة الحداء بها حتى أصمت آذان الدنيا . . . . .

. . . . أم علينا ما جنته ضدكم حنيفة وما جمعت الصعلكة من مقاتلين ضدكم . . . أم علينا ذنب قضاعة إذ قتلوكم ونهبوكم أم أن الحقيقة أننا لادخل لنا بتلك الجناية فلم يتطاير علينا رشاشها أنداء . . .

. . . وإذا لم يكن لنا دخل . . . فلماذا جئتم تطلبون عودة الغنائم . . . بالطبع لن تعود لكم ولا حتى شاة واحدة زهراء أو ذات شامة . . .

(٧٩) لَمْ يُخلَّوا بَنِى رَزَاحٍ (بِبَرْقَا ... ءَ) نِطَاعٍ لَهُمْ عَلَيْهِمْ دُعَاءُ
(٨٠) ثُمَّ فَاءُوا مِنْهُمْ بِقَاصِمَةِ الظَّهْـ ... ـرِ) وَلا يَبْرُدُ الْغَلِيلَ المَاءُ
(٨١) ثُمَّ خَيْلٌ مِنْ بَعْدِ ذَاكَ مَعَ (الغُلْـ ... ـلاقِ) لاَ رَأفَةٌ وَلاَ إبْقَاءُ
(٨٢) وَهوَ الرَّبُّ وَالشَّهِيدُ عَلَى (يَوْ ... مِ) الحِيَارَيْنِ وَالبَلاَءُ بَلاَءُ

يُخلوا : يتركوا ، وتروى : يحلوا .
بنو رَزَاح : أشير إليهم فى شرح البيت ٧٤ ، ٧٥ .
برقاء : أرض ذات حجارة ورمل .
نطاع : أرض قرب اليمن تم قتل بنى زراح فى بقعة برقاء بها .
فاءوا : رجعوا ، من : فاء - يفىء .

قاصمة الظهر : داهية أو مصيبة تقصم الظهر . الغليل : الحقد .

الغلاق : رجل من بنى يربوع بن حنظلة بن تميم ، وكان راعيا لهجائن النعمان بن المنذر، وقد اشتهرت له مقتلة فى بنى تغلب لم يكن له عليها فيها رحمة ولا إبقاء أحد على قيد الحياة .

الرب : المصلح والسيد المجمع للقوم ويريد به الملك عمرو بن هند (أو أباه : المنذر) .

الشهيد : شاهد العيان .

يوم الحيارين : صحب بنو يشكر الملك عمرا (أو أباه) لغزو أهل الحيارين وكان لهم موقف مشهور . ولعل الشاعر يريد فى هذا البيت الإشارة إلى الآية الثالثة فى الآيات الثلاث التى أشار إليها (البيت ٤٨) إذا كان يريد بالآيات الثلاث حروبا ثلاثا مع الملك عمرو . وهذا أقرب إلى منطق السياق لكن لا سبيل لترجيح بل الروايات الأخرى ترجح ما ذهبنا إليه من قبل من أن الآية الثالثة هى القرابة والنسب بين بكر والملك عمرو بن هند .

. . . وكما لم يسترجعوا شيئا من غنائمهم فإنهم لم يتركوا قتلاهم من بنى رزاح يعودون للحياة حتى لو ادعوا ذلك أو طلبوه . . . فهم فى مطالباتهم لنا بذنوب غيرنا لن يجعلهم يرجعون بشىء إلا بالكارثة التى تقصم ظهرهم مثلما فعل بهم الغلاق بخيله بعد حادث بنى رزاح فلم يرحمهم ولم يترك ممن حاربه أحدا على قيد الحياة . . . .

. . . . (وإذا لم يقتنعوا بكل ما قلت) فالملك شاهد عيان على ما حدث لهم يوم الحيارين منا (والملك قادر على إقناعهم بأن من مصلحتهم عدم التعرض لنا بظلم أو قتال !) .

(١)

إن الأخبار تقدم لنا قصيدة عمرو بن كلثوم وقصيدة الحارث بن حلزة فى لقاء درامى عنيف بين الرجلين فى قصر عمرو بن هند ينتهى بانتصار الحارث بمعلقته بعد أن ظن الحضور أن لا قول بعد شعر عمرو بن كلثوم فى المعلقة اذ بلغ فى أنظارهم الغاية . . ويكتشفون وراء الغاية غاية أبعد مع معلقة الحارث حتى أن هند أم الملك صاحت من الدهشة : ياله من يوم حافل لم أر يوما مثله! وينتصر الحارث وينال إعجاب الملك فيرفع ستورا سبعة كانت بينه وبين الحارث ويجالسه بل ويتغاضى عن برص بالحارث وعن الاحتياطات الطبية المهينة له التى تتمثل فى عملية تنظيف كاملة لأثره بالماء .

وينتهى الحارث من قصيدته التى ألقاها متكئا على قوسه حتى دميت كفه من فرط العصبية والغضب ، وبعد غضب الملك على بنى بكر بسبب حمق شيخ منهم يسمى النعمان بن هرم كان يمثلهم فى مقابل عمرو بن كلثوم عن بنى تغلب . يقبل عليهم الملك كل الإقبال ، ويقتل رهائن تغلب ويسلمهم للحارث . هكذا تنقل لنا الأخبار الصورة ثم تأتى بخبر آخر يبدو منه أن الملك أراد أن يمعن فى إذلال بنى تغلب حسب القصة التى أوردناها فى ترجمة عمرو بن كلثوم فتنتهى حياة عمرو بن هند نهاية مأساوية بضربة سيف من عمرو بن كلثوم يعقبها ترديد جديد لمعلقته وقد أضاف إليها إشارات لهذا الحدث الأخير مما جعلنا نظن بفقد النسخة الأولى من قصيدته التى لا شك أن بها بعض المدح للملك عمرو أو ـ على الأقل ـ بعض الود والاحترام ، وعموما فإن التغيير لم يغير من الصيغة السياسية القبلية للقصيدة مما جعل منها خطابا سياسيا حماسيا ، ولن نفهم جيدا قصيدة عمرو بن كلثوم بعيدا عن قصيدة الحارث وقد أشرنا إلى ذلك فى حينه عند الكلام عن خطابية ابن كلثوم حيث أوردنا وصف الحارث لقصيدته بأنها خطبة .

من ثم لن يفهم أيضًا نص الحارث بعيدا عن نص صاحبه أو خصمه عمرو بن كلثوم كما لن يفهم النصان بعيدا عن الجو الدرامى الذى يحيط بهما سواء استقيناه من المصادر التاريخية (الرواة) أو تصورناه من طبيعة النصين . . .

إن النصين خطبتان شعريتان فى حضرة عمرو بن هند فى أسلوب خطاب مباشر إليه

لكن نص عمرو بن كلثوم يحمل شيئًا من العنف فى خطاب ذلك الملك، وشيئًا (كثيراً) من المبالغة فى الفخر بعكس نص الحارث الذى يتسم بالحنكة السياسية والدهاء عندما حول كل فخر إلى ولاء للملك كما بحث ونقب فى هزائم تغلب وأوردها فى سياق ذكى ساخر يضع أعداءه موضع الظالم المثير للسخرية. إنه يتهم تغلب بأنها تحمل قومه جريرة كل غزو لها وانتهز الفرصة ليعدد غزوات ضد تغلب انهزمت فيها وكذلك ليعدد بعض أسماء المهزومين منها مشيراً لكثير من أيام العرب.

ولنفس السبب الذى تباينت فيه روايات قصيدة عمرو بن كلثوم تتباين روايات قصيدة الحارث، فنحن أمام خطاب سياسى واضح يقف أمام نقط جزئية كى يحقق إقناع الملك بقضية قومه، كذلك يمكن أن ينضم النص برواياته للنص الآخر كمدخل لدراسة شفوية الشعر الجاهلى.

(٢)

إن مقدمة القصيدة إذا وضعت بجانب مقدمة عمرو بن كلثوم نحس أنها ذات علاقة وثيقة بموضوعها السياسى، إن محبوبة الحارث اسمها هند (لها من الأسماء أسماء) وهذا اسم أم الملك، لهذا دلالة شديدة الوضوح. . إذا رأينا أن صاحبة عمرو بن كلثوم تحمل اسم: أم عمرو (البيت ٥، ٦)، وأم عمرو هى أم الملك. وموقف الحبيبة فى الحالتين يتفق مع الخبر التاريخى:

إن بكرا انتدبت شيخا من أشرافها هو النعمان بن هرم فى مواجهة عمرو بن كلثوم عن تغلب التى يميل إليها الملك. ويدور حوار بين الرجال الثلاثة ينتهى بغضب الملك من النعمان وبطرده. وهذا اعلان بالبين والمقاطعة بين الملك وبكر. ويتقدم الحارث طارحا هذه الحقيقة:

آذنتنا ببينها أسماء

ثم يلمح فى ذكاء وحنكة وتنبؤ إلى ابقاء الملك لعمرو ابن كلثوم مبشرا بملل الملك منه:

رب ثاو يمل منه الثواء

ثم يلمح إلى أن بين الحبيبة (أو الملك) كان بعد ود وعهد طويل فيكثر من ذكر الديار وكلها رموز للوفاء والماء والمحبة (الأبيات ٢ ـ ٤). ثم يشير إلى تجاهل الملك لكل ذلك أو لغياب المحبوبة على حد سواء.

لا أرى من عهدت فيها فأبكى

وها هو يرى هند توقد نار حزازى (وهذا علامة على بداية القتال) لكنه يتنورها فى حب وأمل، وأيضا فى ثقة بالنفس بأنه «لو خف بالثوى النجاء، وأرغم وقومه على مغادرة قصر الملك مدحورين» فسوف يستعين بناقة تسير بإيقاع منتظم حتى فى أحلك الظروف وهى ما يشير إليه فى بداية الخطبة السياسية المباشرة بقوله:

«وأتانا من الحوادث (١٥) . . . إن إخواننا الأراقم . . . (١٦)»، وتلك الحوادث هى سبب الموقف الراهن. وهذا مدخل يحمل كل ما سيرد فى القصيدة بعد ذلك مفصلا. وأعنى بالمدخل الأبيات (١٥ ـ ١٩) التى تبدأ فى ود مسموم وموضوعية ساخرة: (إن إخواننا الأراقم)، فالتناقض بين صدق الاخوان وسم الأراقم واضح بينما هو يشير فى براءة لكنية القوم. . ويتأكد خبث الشاعر فى وصفه لهم بأنهم يغلون إلى درجة أن كل من أذنب ذنبا فى العالم، سيحملون بكرا وزره. وأنهم رغم المواثيق والشروط يدبرون الشر فى ظلام الليل ليكشف الصباح عن استعدادهم لشن حرب غادرة. إن قراءة ما بعد ذلك من أبيات لن يضيف جديدًا.

***

(٣)

فى مقدمة عمرو بن كلثوم لقصيدته ـ التى أشرنا إليها منذ قليل على أنها النسخة الأخيرة المعاد تحريرها كما تؤكد الأخبار وكما يبدو من تناقض النص مع الود الظاهر بين تغلب والملك ساعة إلقاء النص ـ ما يدل على أنها مقدمة النص المعدل بعد أن قتل عمرو بن هند رهائن تغلب ومال إلى بكر، أو ربما بعد أن قتل عمرو بن كلثوم الملك المذكور.

إن الخبر يشير إلى أن هند أعجبت بشعر الحارث وطلبت من ابنها رفع الستور بينه وبين الشاعر إلى أن أعدت لهما الطعام الشراب فى مجلس منادمة فى تجاهل لعمرو بن كلثوم فيخاطبها عمرو بن كلثوم خطابا فى حقيقة الأمر هو خطابه إلى الملك، وفى النص إلى الساقية والحبيبة والظعينة (أبيات عمرو بن كلثوم (٥ ـ ١١):

صبنت الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمينا

إن هذا ما يشير إليه الخبر: لقد انصرف الملك عن عمرو بن كلثوم وقومه بنى تغلب بعد أن كان يميل إليهم معاديا بكرًا.

وما شر الثلاثة أم عمرو.....

إن الثلاثة هم: الملك والحارث وعمرو بن كلثوم! ثم يستوقف متسائلا مندهشًا معلنا ما يراه عين اليقين مراجعا الملك وأمه أو محبوبته على حد سواء:

قفى قبل التفرق يا ظعينا نخبرك اليقين وتخبرينا

ثم يسأل هل أحدثوا صرما أم أنها خيانة مدبرة للأمين الذى أخلص لهم؟!

ثم يتحدث عن محبوبة أسطورية ولت وحزن عليها حزنا شديدًا. . . إنه الود الضائع والجمال المولى والصديق الذى صار عدوا. . . وبالتالى ليس صدفة أن يصبح حزنه لا يعادله حزن ناقة فقدت ولدها (ملمحا لنية قتل عمرو بن هند وحزن أمه عليه).

ولا شمطاء لم يترك شقاها لها من تسعة إلا جنينـــا

إن الرقم تسعة يرد فى معلقة الحارث (٦٢).

وأتيناهم بتسعـــة أملا ك كرام أسلابهم أعـــلاء

لقد قتلوا وحزنت أمهم ولا يعدل حزنها حزن عمرو! إن عمرًا يلمح للنهاية التراجيدية لصداقته بعمرو بن هند بل وبهند نفسها التى تقف وراء الحوادث دون أن تفسر الأخبار حقيقة أمرها. انها الشخصية الحقيقية التى تحكم عن طريق ابنها عمرو، ولعلها تملأ نفس كل هؤلاء اعجابا عبرت عنه أشعارهم. وقد سقط هذا الاعجاب الذى يصل إلى حد العشق من الأخبار التى أحاطت بالقصيدتين!

(٤)

الصور الجزئية عند الحارث خاطفة سريعة[1]. من أمثالها: تشبيه القتلى إذ تنبثق منهم الدماء بالزق المثقوب (البيت ٥٢).

فرددناهم بطعن كما يخرج من خربه المزاد الماء.

وها هى صورة أخرى وردت عند عنترة فى سياق أفقى مرشح (عنترة ٦٦ ـ ٦٩) ولكنها ترد عند الحارث سريعة (٥٤).

وجبهناهم بطعن كما تنهز فى جمه الطوى الدلاء.

تلك هى صورة حركة الرماح أثناء الطعن: إنها ـ عند عنترة ـ أشطان بئر فى لبان الأدهم، وهنا دلاء فى بئر من دماء العدو. وفوق أن الصور قصيرة فإنها تقليدية فى معظم الأحوال أو على الأقل توحى بأنها صور انتقلت من المجاز إلى الحقيقة ومن الاستعمال الشعرى إلى الاستعمال اليومى مثل قوله على اشتداد الحرب فى البيت ٦٠ (إذا تلظى

(١) بعكس إيقاع المعلقة الشديد البطء الملىء بوقفات السكون الممتد الأشطار حتى تتحول الأبيات إلى سطور متصلة تزحف فى هدوء.

الصلاء) وعلى السيوف الصدئة بأنها (خضراء) فى البيت ٥٦ . . . . إلخ .

وفوق ما سبق فهى قليلة العدد تكاد تقل فى عددها عن كل المعلقات . إذن فالحارث ينتمى للطبقة المتوسطة تاريخًا من الشعراء الجاهليين مع امرئ القيس وطرفة وعمرو بن كلثوم . ولعل طرفة أحدث هؤلاء كما ينبئنا نصه بصوره المطولة نسبيًا .

خاتمة: كلمة حول المصادر

تمت الإنجازات التالية فى هذا الكتاب :

١ ـ تقويم نصوص المعلقات أخذا برواية الزوزنى فى ترتيب الأبيات .

٢ ـ تحديد عدد من الألفاظ والعبارات تحتاج لمعجمة ثم عمل معجم لها يحاول بسط دلالتها التاريخية فى النص .

٣ ـ ترجمة نثرية للنص الشعرى تمثل الدلالة السطحية للشعر على مستوى جزئى يقرب المعنى الأول الخارجى الذى يعين على القراءة الأولى لنص قديم يتطلب كسر ما بيننا وبينه من حاجز الزمان . ويعد هذا العمل الشارح مكملا للعمل المعجمى .

٤ ـ دراسة لكل نص تضىء ما به من ظواهر واستعنت على كل ما سبق بالمصادر الآتية :

١ ـ خبرتى الشخصية فى معايشة هذه النصوص وقد أفادنى كثيراً فى تكوين هذه الخبرة أساتذتى (وعلى رأسهم الراحل العالم عبدالعزيز الأهوانى) وزملائى وطلابى .

٢ ـ الثقافة العربية المعاصرة بما تحمل من جذور تراثية .

٣ ـ السير الشعبية العربية المدونة بمصر فى طبعات شعبية .

٤ ـ شروح المعلقات ، أخص منها بالذكر :

(أ) أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى (تحقيق وتعليق : عبد السلام محمد هارون) . شرح القصائد السبع الطوال ، الجاهليات ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٣ .

(ب) أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس (تحقيق أحمد خطاب) ، شرح القصائد التسع المشهورات ، مجلدان ، وزارة الاعلام العراقية ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٣ .

(جـ) الزوزنى ، شرح المعلقات السبع (بدون محقق) ، دار صادر بيروت ، ١٩٦٣ . وأيضاً : دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٨ .

(د) الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطى ، شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها ، دار الأندلس ، بيروت .

٥ ـ مصادر الشعر الجاهلى الأخرى وأخص منها :

١ ـ كتب المختارات القديمة .

٢ ـ كتب الطبقات .

٣ ـ دواوين الشعراء الجاهليين .

٤ ـ كتاب الأغانى .